البعد التداولي لنظرية الأفعال الكلامية في التراث اللغوي العربي
-مفتاح العلوم للسكاكي نموذجا-

أ. ليلى برمضان
كلية الآداب واللغات-جامعة تلمسان
إشراف: د. ناصر بلخيثر

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى إبراز تقديم مفاهيم عامة حول التداولية باعتبارها علما جديدا في التواصل الإنساني ومحور دراستها هو الظواهر اللغوية في الاستعمال وعلاقته بمستعمليه؛ المخاطِب والمخاطَب والفعل الكلامي.

تعتبر الأفعال الكلامية أحد مجالات التداولية وذلك ضمن نظرية الصدق والكذب عند العلماء الغربيين، ونظرية الخبر والإنشاء في التراث العربي.

ويعد "السكاكي" أحد العلماء البلاغيين في دراسة الأفعال الكلامية من خلال كتابه "مفتاح العلوم" الذي ركز فيه على السياق ودوره في تحقيق مقاصد المتكلم وإيصالها إلى السامع وهذا ما سنوضحه في هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: التراث العربي، التداولية، الأفعال الكلامية

ABSTRACT:

PRAGMATICS AND THE SPEECH ACT THEORY IN THE ARABIC HERITAGE LANGUAGE

-The case "Miftah al-Ulum" (the key to sciences) by al-Sakkaki -

This research paper highlights the general concepts of Pragmatics, the new science of human communication, whose core study is about the language phenomena and its users; the speaker, the listener and the speech act.

Pragmatics encompasses the speech act theory namely the Truth and False theory from the West and the science of Arabic rhetoric.

Our study focuses on the influential "Miftah al-Ulum" (the key to sciences) by the rhetorician, Al-Sakkaki in which he studied the speech acts especially the context, the interfered intent of the speaker and its transmission to the listener.

Key words: Arab heritage – Pragmatics – speech acts.

ظهر علم جديد يهتم بالتواصل والاستعمال الفعلي للغة، يقوم بتحديد بنيتها

التركيبية، إضافة إلى أنّ المتكلم يبني كلامه وفق ظروف التواصل، وطبيعة المتلقي لا وفق مبادئ النظام أم حتى ما يرتبط به هو، بعدّه منتج الكلام.

إنّ هذا العلم يدعى ب"التداولية"؛ والذي يشتق من مادة "دَوَلَ"؛ والباحث في معجم "لسان العرب" يجد أنّ "دَوَلَ: الدولة والدولة العقبة في المال والحرب سواء، والدولة اسم الشيء الذي يُتداول، ودالت الأيام أي دارت والله يداوله بين الناس، دواليك: ما تداولوا الأمر بينهم يأخذ هذا دولة وهذا دولة، وقولهم دواليك أي تداولا بعد تداول. [1] وفي معاجم أخرى الدولة: انقلاب الزمان من حال إلى حال. والدّوُلة: العقبة (النوبة) في المال. وتداولوه: أخذوه بالدول أي نوبا وتداولته الأيدي، أخذته هذه مرة، وهذه مرة[2].

وفحوى الكلام من خلال المفاهيم المعجمية أنّ مجالات لفظ دول:

-التحول من مكان إلى مكان(القوم).

-الاسترخاء للبطن بعد أن كان في حال أخرى غيرها (اندال البطن).

-التناقل بين أيدي هؤلاء إلى أيدي هؤلاء (المال).

وتعرّف التداولية في المعنى الاصطلاحي بأنّها دراسة المعنى والاستعمال اللغوي، بالنظر إلى المتكلم والمتلقي، وعوامل أخرى تتعلق بسياق الكلام.

لقد نشأت التداولية على يد الفيلسوف الأمريكي" **تشارلز موريس**" سنة1938

معرّفا إياها بأنّها "جزء من السيميائية تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات ومستعمليها "موزعا دراسته إلى ثلاث جوانب: الجانب النحوي (التركيبي)(syntax) والذي يدرس الرموز اللغوية .والجانب الدلالي (semantics) والذي يعنى بالرموز اللغوية وعلاقتها بالأشياء التي تدل عليها، وأما الجانب البرغماتي (pragmatics) والذي يعنى بدراسة العلاقات بين العلامات ومستخدميها[3].إذ استقر في ذهنه أنّ دراسة ضمائر التكلم والخطاب، وظرفي المكان والزمان والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيا خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل."[4]

عموما وردت عدّة مفاهيم للعديد من الباحثين الغربيين وتبقي فكرة واحدة مفادها أنّ التداولية تدرس اللغة من خلال استعمالها ضمن سياق معين دون إهمالها للمعنى وعلاقتها بظروف الكلام. أي أنّها تهتم بدراسة الأفعال الكلامية والكشف عن أهميتها في عملية التواصل. ويعتبر هذا العامل الأساس الذي تقوم عليه التداولية.

نظرية أفعال الكلام:

تعتبر نظرية أفعال الكلام بين أولى النظريات التي حاولت بحث العلاقة بين اللغة والاتصال[5]. وهذه مقولة لـ "مالينوفسكي""إنّ اللغة أسلوب عمل وليست توثيق فكر"، فدلالة الملفوظات تتداخل بين القرير والأداء، وترتبط مباشرة بالموقف التي تقال فيه أو تنجز فيه، ولكن الفكرة الأساسية ترجع" لأوستين" والذي اعتبر في فكرته أنّ التفوه بكلام هو فعل كلامي[6] مركب من ثلاث جوانب[7]:

-فعل الكلام التلفظي (فعل القول):

والذي يتخذ مظهرا صوتيا وتركيبيا ودلاليا.

-فعل الكلام الإنجازي:

والذي يعبر عن قصد المتكلم كأن يخبر أو يسأل أو يَعدَ أو يَنْذر أو يوعد.

-فعل الكلام التأثيري:

ويعنى به الأثر الذي يخلفه التلفظ بالعبارة لدى المخاطب، كأن يستبشر أو يرعب أو ينفعل أو يطرب أو يغضب.

ومما سبق يتبين لنا أنّ نظرية الأفعال الكلامية تعدّ أساسا للتداولية عند الغربيين ولكن ننسى جهود العلماء العرب في تبني هذا المصطلح؛ والدليل على ذلك الأستاذ "طه عبد الرحمان" هو أول من اقترح مصطلح التداولية في العالم العربي من خلال تأليفه لكتاب "في أصول الحوار"، وقد تبناه "أحمد المتوكل" واستعمله فلقي استحسان المختصين، وأثناء تصفحنا للمصادر العربية "دلائل الإعجاز"، "البيان والتبيين"، "الخصائص"، "الكشاف"، "مفتاح العلوم"....نجدها تتحدث عن الدراسات التداولية[8] والمتمثلة في نظرية الخبر والإنشاء ضمن مباحث علم المعاني مركزين فيها قصدية المتكلم تندرج تحت مفهوم الأغراض البلاغية للأساليب التي تقابل الأفعال الكلامية.

ومن بين الدراسات العربية التي قمنا باختيارها دراسة "السكاكي للأفعال الكلامية "(ت626هـ) في كتابه "مفتاح العلوم" ضمن "علم المعاني" الذي اختص بدراسة التراكيب المفيدة مقسما هذا النوع إلى قسمين: خبري وطلبي[9].

وذلك في قوله "إن التعرض لخواص تراكيب الكلام موقوف على التعرض لتراكيبه ضرورة، لكن لا يخفى عليك حال التعرض لها منتشرة، فيجيب المصير إلى إيرادها تحت الضغط بتعيين ما أصل لها وسابق غب الاعتبار، ثم حمل ذلك عليه شيئا فشيئا على موجب المساق والسابق في الاعتبار في كلام العرب شيئان: الخبر والطلب."[10]

من خلال هذا القول يتضح لنا أن السكاكي استعمل مصطلح "الطلب" عوض "الإنشاء"، و"الطلب عند السكاكي خمسة: التمني والاستفهام والأمر والنهي والنداء."[11].

1-التمني:

هو تعبير عن رغبته تحرك في النفس فهو داخل التعبيريات وبهذا لا يعد طلبا مثل "ليت الشباب يعود" فهذا الطلب مستحيل لأنه لا يعود. كما قد يتولد عن التمني "أفعالا إنجازية" "كالتنديم"، وهو لوم وتوبيخ المخاطب فيما تركه أو يقدر فيه تركه" ومن أدواته هلاّ، ألاّ، ولوما، ولولا كقوله: "هلا أكرمت زيدا" فكأن المعنى: ليتك أكرمت زيد، متولدا عنه معنى التنديم"[12].

2-الاستفهام:

هو أن تطلب ما هو خارج ليحصل في ذهنك نقش له مطابق، وفيما سواه تنقش في ذهنك ثم تطلب أن يحصل في الخارج له مطابق، فنقش الذهن في الأول (أي في الاستفهام) تابع وفي الثاني (أي باقي أواع الطلب) متبوع [13]

وبناء على هذا قوله هذا، يمكننا أن نقول أنه يميز بين "الاستفهام" وباقي الطلبيات انطلاقا من علاقة الواقع بالتمثيل الذهني للمتكلم حيث أن "الاستفهام" يطلب ما في الذهن، لذلك تصنف ضمن الأفعال التي تحقق هذه الرغبة في أن واقعا خارجيا ممثلا في ذهن المتكلم، بإمكانه تحقيق هذه الرغبة على مستوى العالم الخارجي، أما باقي الطلبيات "النداء والأمر والنهي فهي الصنف الثاني الذي يكون لطلب الحصول في الخارج." [14]

وقد يخرج الطلب عن المعنى الأصلي إلى المعنى المقامي مثل:

خروج الاستفهام إلى التمني:

كقول" هل لي من شفيع؟" في مقام لا يسع إمكان التصديق بوجود الشفيع، امتنع إجراء الاستفهام على أصله، وولد بمعونة قرائن الأحوال معنى التمني."(15) وهنا خرق شرط "التصديق" مما جعل الاستفهام يخرج عن معناه الأصلي إلى التمني.

خروج الاستفهام إلى العرض:

إذا قلت لمن تراه لا ينزل: ألا تنزل فتصيب خيرا، امتنع أن يكزن المطلوب بالاستفهام التصديق بحال نزول صاحبك لكونه حاصلا، ويوجه بمعونة قرينة الحال إلى نحو: ألا تحب النزول مع محبتنا إياه، وولّد معنى العرض". [16]

خروج الاستفهام إلى الإنكار والزجر والتوبيخ والوعيد:

وإذا قلت لمن تراه يؤذي الأب: أتفعل هذا؟ امتنع توجه الاستفهام إلى فعل الأذى لعلمك بحاله، وتوجه إلى ما لا تعلم مما يلابسه، من نحو: أتستحسن؟ وولد الإنكار والزجر، أو كما قلت لمن يهجو أباه، مع حكمك بأن هجو الأب ليس شيئا غير هجو النفس: هل تهجو إلا نفسك؟ أو غير نفسك؟ امتنع منك إجراء الاستفهام على ظاهره، لاستدعائه أن يكون الهجو احتمل عندك توجها إلى غيره، وتولد منه بمعونة القرينة، الإنكار والتوبيخ. ففي هذا المقام يستفهم عن معنى معلوم لديه، ومن شروط المعدّة للاستفهام أن يطلب شيء غير معلوم لديه، فيرجع للمقام لتحديد المعنى المطلوب[17].

أو إذا قلت لمي يسئ الأدب: "ألم أؤدب فلانا؟ امتنع أن تطلب العلم بتأديب فلانا وهو حاصل، وتولّد منه معنى الوعيد والزجر. أو كما قلت لمن بعثت إلى مهم وأنت تراه عندك: أما ذهبت بعد؟ امتنع الذهاب عن وجه الاستفهام إليه، لكونه معلوم الحال، واستدعى شيئا مجهول الحال

مما يلابس الذهاب: أما تيسر لك الذهاب؟ وتولد منه الاستبطاء والتحضيض[18].

يمكن اعتبار "الاستفهام" الفعل الكلامي الأصلي "وما تولد عنه من أفعال في مثل: التمني، العرض، الوعيد والزجر، والاستبطاء "أفعالا متضمنة في القول "ناتجة عن مقامات معينة.

وبملاحظتنا لطريقة تحليل "السكاكي" لخروج "الاستفهام" عن معناه الأصلي إلى الأغراض الفرعية، ويتم ذلك في مرحلتين[19]:

أولهما: أن يؤدي عدم المطابقة المقامية إلى خرق أحد شروط الإجراء على الأصل أو ما أطلقنا عليه "شروط المعدة" الخاصة ب "الاستفهام" فيمتنع إجراء المعنى الأصلي.

ثانيهما: أن يتولد عن خرق شرط المعنى الأصلي وامتناع إجراءه معنى آخر، وقد يكون من المعاني أو الأفعال الكلامية الخمسة الأصلية.

3-الأمر:

يعرّف "السكاكي" بأن "الأمر في لغة العرب عبارة عن استعمالها أعني استعمال نحو: لينزل، وانزل، ونزال وصه على سبيل الاستعلاء ويضيف أن هذه الصور والتي من قبيلها، هل هي موضوعة لتستعمل على سبيل الاستعلاء أم لا؟ فالأظهر أنها موضوعة لذلك، وهي حقيقة فيه، لتبادر الفهم عند الاستماع نحو: "قم" وليقمْ زيد"، إلى جانب الأمر، وتوقف ما سواه من الدعاء والالتماس والندب، الإباحة.[20]،وفي هذه العبارة حاول "السكاكي" أن يضع الشروط والقوانين التي تخص هذا الفعل الكلامي المتمثل في "الأمر" ،وقد أكد على ضرورة امتلاك "السامع" للكفاءة "اللغوية" والتداولية"، وذلك في معرفته للصيغ الخاصة بالأمر، وتميزه عن غيره من الأفعال الكلامية الأخرى كالالتماس والإباحة، مثلا؛ باختلاف المقامات والأحوال وعلاقة المتكلم والمخاطب ذلك لأن من شروط الأمر "الاستعلاء" الذي يعتبر شرط تداولي؛ فهو يحدد علاقة المتكلم بالسامع، ولكن يجب أن تكون مرتبة المتكلم أعلى من درجة السامع، وهذه السلطة هي التي يمارسها المخاطب في تنفيذ الأمر المطلوب منه؛ حتى يؤثر في السامع عن طريق سلطته[21].وقد فسر ذلك بقوله: "ولا شبهة في أن طلب المتصور، على المطلوب منه، ثم إذا كان الاستعلاء ممن هو أعلى رتبة من المأمور، استتبع إيجابه ووجوب الفعل بحسب جهات مختلفة، وإلا لم يستتبعه، فإذا صادفت أصل الاستعمال بالشرط، أفادت الوجوب، وإلا لم تفد غير الطلب."[22]

4-النهي:

يقول السكاكي "للنهي حرف واحد (لا) الجازم في قولك: "لا تفعل"، وللنهي محذو به حذو الأمر في أن أصل الاستعمال: "لا تفعل"، أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور، فإن صادف ذلك، أفاد الوجوب، وإلا أفاد طلب الترك فحسب"[23]

إذا كان المتكلم أقل مرتبة من المخاطَب فقد تولد عنه التضرع كقول المبتهل إلى الله: "لا تكلني إلى نفسي " ولدت فعلا كلاميا هو "الدعاء"، وإن استعمل في حق المساوي الرتبة ولدت "الالتماس"، وإن استعمل في مقام السخط سمي "تهديدا"[24]

يتولد عن الفعل الكلامي "النهي أفعالا متضمنة في القول: الدعاء والالتماس والتهديد ويكون حسب اختلاف المقام.

5-النداء:

لم يفصل "السكاكي" في هذا النوع مثل الأنواع الأخرى؛ وقد تحدث عنه لإفادة التخصيص بقوله: "وتلك الصورة هي قولهم: أما أنا فأفعل كذا أيها الرجل، ونحن نفعل كذا أيها القوم، اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، يراد بهذا النوع من الكلام الاختصاص على معنى: أنا أفعل كذا متخصصا بذلك من بين الرجال، ونحن نفعل كذا متخصصين من بين الأقوام، واللهم اغفر لنا مخصوصين من بين العصائب." [25]

خاتمة:

توصلنا في نهاية هذا البحث أنّ:

نظرية أفعال الكلام حققت انجازات علمية وفكرية في التراث اللغوي القديم.

ترتكز التداولية على المتكلم والسامع والمقام، وهذا ما وجدناه في كتاب "مفتاح العلوم "للسكاكي الذي تميز من خلال تحليله للنصوص ودراسته لها بمنهج تداولي. ومن هنا يمكن القول أنّ العرب لهم الأسبقية في التحليل التداولي.

ركز السكاكي في كتابه على الكلام حسب مقتضى الحال ودرس فيه عناصر التداول: المتكلم والسامع والمقام وكان هدفه هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب وقد خصص خمسة عناصر للطلب: التمني، الاستفهام، الأمر، النداء، والنهي.

هوامش البحث:

1-ابن منظور "لسان العرب"، تح عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشادلي، م2، مادة (دول)، دار المعارف القامرة، (د.ط)، (د.ت)، ص1456.

2-فيروز أبادي "قاموس المحيط"، ج4، دار الجبل، بيروت، (د.ط) (د.ت)، ص42. والرازي، "مختار الصحاح"، دار الجبل، بيروت، (د.ط) ،1987، ص215.

3-خليفة بوجادي "في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم"، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص147-148.

4-آن ربولوجاك موشلار "التداولية اليوم علم جديد في التواصل"، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة، لبنان، ط1، 2003.

5-موسى جمال، رسالة ماجستير، "تجليات مفاميم التداولية في العربي-تفسير الرازي لسورة المؤمنون نموذجا-"، جامعة الجزائر، (2008-2009)، ص40.

6-صلاح حسنين، "المدخل إلى علم الدلالة وعلاقته بعلم الأنثربولوجيا، علم النفس، الفلسفة"، دار الكتاب الحديث، القامرة، (د.ط)، (1428هـ-2008)، ص209.

7-ينظر المرجع نفسه، ص912.

8-محمد مدور، "نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والمنامج الحديثة-دراسة تداولية-"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد16(2012)، ص52

9-أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، "مفتاح العلوم"، تح، أكرم عثمان يوسف، دار الرسالة، بغداد، ط1(1402هـ-1982)، ص247

10-المصدر نفسه، ص251.

11-محمود أحمد نحلة، "آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر"، دار المعرفة الاسكندرية، ط2006،1، ص114.

12-أم الخير سلفاوي، رسالة ماجستير، "البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي"، كلية الآداب واللغات، جامعة تلمسان، ورقلة،

(2009-2010)، ص150.

13-مسعودي صحراوي، "التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظامرة "الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي"، دار الطليعة، بيروت، ط2005،1ص113.

14-أم الخير سلفاوي، رسالة ماجستير، "البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي"، (مرجع سابق)،154.

15-محمود أحمد نحلة، "آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر"، (مرجع سابق) ص114.

16-المرجع نفسه، ص115.

17-المرجع نفسه، ص115.

18-المرجع نفسه، ص115.

19-أم الخير سلفاوي، رسالة ماجستير، "البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي"، (مرجع سابق)، ص156.

20--أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي،"مفتاح العلوم"، (مصدر سابق)، ص543

21-أم الخير سلفاوي، رسالة ماجستير، "البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي"، (مرجع سابق)، ص157.

22-أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي،"مفتاح العلوم"، (مصدر سابق)، ص543

23-المصدر نفسه، ص545.

24-المصدر نفسه والصفحة نفسها.

25-المصدر نفسه، ص549.